تخصص علم الدلالة وتحليل الخطاب

مرازي حكيمة

جامعة سيدي بلعباس /الجزائر

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى استكناه صور العدول في الخطاب القرآني، ومحاولة إبراز الجوانب الدلالية لهذه الظاهرة، وتسليط الضوء على ما فيها من جمالية تصويرية ولغوية، كما تحاول التنويه إلى أنّ كل تغيير في نمط الأسلوب القرآني، يستلزم بالضرورة زيادة في المعنى، أو إحالة إلى معنى غامض يستحيل الوصول إليه إلا بهذا المسلك اللّغوي.

كما نحاول التأكيد على أن هذا الضرب من العدول في القرآن الكريم له جذور في كلام العرب، إلا أنّ الخطاب القرآني وظّفه وفق طريقة فريدة ونسق مثالي ، كل ذلك في ظل إبراز الدلالة القرآنية وسعة مداركها، وجمال تركيبها.

Résumé

Le but de cet article se résume d'extraire les différents types de l'écart dans le discours coranique et de séléctionner les cotés sémantique de ce phénomène linguistique, ainsi que surligner la beauté de cette langue graphique.

En effet, dans cet article on désiste que chaque changement du motif méthodique du discours coranique implique nécessairement un changement du sens ou bien une référence à un sens plus ambigu et mystérieux qu'on n'en puisse l'établir qu'avec cette méthode linguistique.

On essaie donc, de confirmer que ce type d'écart dans le CORAN a des racines dans l'ancienne langue arabe mais a été employé par le discours coranique avec un nouveau procédé plus parfait.

لا يمكن رصد الظواهر اللّغوية في لغة ما إلاّ من خلال أوضاعها الطبيعية، ونعني بذلك تمثّلها في قواعد نحوية ساهم في وضعها الجماعة المتكلّمة بها، وهو ما يسمى بالكفاية اللّغوية، ولكن جمالية اللّغة لا تنحصر في التقيد بالنّظام العام الذي يحكمها فقط، بل في أحيان كثيرة تكمن أناقة اللّغة في الخروج المنظم* عن تلك القواعد، واللّغة العربية بدورها تخضع لهذه النظرية، فقد فهم العربي قدرة لغته على التجدّد ومفارقة أصلها الذي وضع لها من أجل تأدية معان أخرى، فكان لا بدّ للعرب أن يصوغوا لأنفسهم نظرية في اللّغة تقوم على فكرة الأصل الذي يعدّ معياراً ثابتاً على المتكلّم أو صانع النصّ الخروج عنه، فيصبح عمله عدولاً عن هذا الأصل، ونعني بهذا بلوغ جمالية إيحائية لم تتوفّر في الأصل.

عندما نعاين بعض الأساليب المعدولة في الخطاب القرآني سنجد أنّنا إزاء حضور نصّي متفرّد، بل ومستقل عن اللّغة التي جاء بها، ولا نقصد بالاستقلال هنا المخالفة أو الخروج عن المنحى العام لها فذلك غير ممكن مصداقاً لقول اللّه تعالى:﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾فصّلت 03، وإنّما الاستقلال الجمالي الذي يسمو بالنصوص فيجعلها في مصاف الإعجاز، ذلك التفرّد الذي يراعي جهة المخاطب، فيصوغ أخباره وأحكامه وفق نفسيته ومزاجه.

جاء في الخطاب القرآني التعبير عن أحداث مضت وانقضت في غابر الأزمان بصيغة المضارع، وإن كانت هذه الظاهرة في القرآن الكريم قد جاءت وفق تناسق عالي ودقّة لامتناهية، إلاّ أنّ الجدير بالذكر أنّ هذه الظاهرة كانت موجودة في كلام العرب الفصحاء.

والواضح أنّ هذا الضرب من مفارقة المتكلّم معيارية اللّغة قد لاقى قبولاً لدى أرباب الفصاحة والبيان، وعُدّ قائله من فطاحلة الكلم وهذا بشهادة ابن كثير إذ يقول:"اعلم أيّها المتوشح لمعرفة علم البيان أنّ التحوّل عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلاّ نوع من الخصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلاّ العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطّلع عن أسرارها، أدقّها فهماً وأغمضها طريقا[1]، وعلى هذا ترجع جمالية هذا العدول في أنّ سببه وجود خصوصية تدفع المتكلّم بدلاً من أن يعبّر بالفعل الماضي كما هو المفترض يعدل إلى الفعل المضارع. ومنه قول رؤبة:

أَتَى فِي رَمَضَانَ الْمَاضِي **جَارِيَةً فِي دَرْعِهَا الْفَضْفَاضِ

تُقَطِّعُ الْحَدِيثَ بِالْإِيمَاضِ ** أَبْيَضِ مِنْ أُخْتِ بَنِي إِيَاض[2]

فجاء بالفعل أتى على الحقيقة ماضياً ولكن خصّ الحديث بالفعل المضارع تقطّع ليدلّ بذلك على جمال هذا الكلام الذي تقطّعه وتعلّق الأسماع والقلوب به. ومنه قول تأبّط شرّاً:

بِأَنِي لَقَيْتُ الغُولَ تَهْوِي ** بِشُهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ

فَأَضْرِبُهَا بِلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ **صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْـجِرَانِ[3]

فقد جاء بالفعل لَقَيْتُ ماضياً على الحقيقة-أي الزمن الماضي- ليدلّ على حقيقة وقوع هذا الحدث وتثبيته في الأذهان، ولكن الفعل الذي يحوز الخصوصية والتميز، والذي حاول الشاعر جاهداً لفت سمع وانتباه المتلقي إليه، هو ضربه لهذه الغول فجاء بالفعل أَضْرِبُهَا، ويقيم السكاكي هذه الصورة وهذا المذهب في القول:" أنظر كيف سلك في أَضْرِبُهَا بِلا دَهَشٍ قصداً إلى أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بضرب الغول، ويطلعهم على كنهها، ويتطلّب منهم مشاهدتها تعجيباً من جرأته على الكون"[4]. وعلى العموم، فهذه الظاهرة منتشرة في ديوان العرب .

أمّا عن طرق الاستعمال القرآني لهذه الظاهرة فكانت متنوعة منها:

1)- *حكاية الحال الماضية*

معنى حكاية الحال الماضية هو أن ينقل لنا القرآن الكريم مشاهد وأحداث وقعت في الأزمنة الماضية، ويعرضها بصيغة المضارع "يفعل" ويعرّفها الكفوي: " معنى الحال الماضية عند النحاة أنّ القصّة الماضية كأنّها عبّر عنها في حال وقوعها بصيغة المضارع كما هو حقّها، ثمّ حكى تلك القصة بعد مضيها"[5]، ودور هذه الحكاية وفق هذه الطريقة –أي بالفعل المضارع- هو جعل تلك المشاهد والأحداث شاخصة أمام القارئ الذي يتحول في هذه الأسيقة إلى مشاهد لهذه الأحداث، فكأنّها تحمله إلى ذلك الزمن ليعيش هذه الأحداث كما عاشتها شخصياتها.

ويخرج هذا الاستعمال لأغراض منها إعادة بعث الأحداث، وذلك لتذكير فئة معينة بحادثة ما، ومن قوله تعالى:﴿ **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**﴾ الأنفال 11-،مجموعة من المشاهد حشرت في آية واحدة، حمل ذاكرة المسلمين إلى تلك اللّحظات الحرجة، حيث جاءهم الغوث وهم في أمس الحاجة إليه، وفيه تذكير بنعمة أخرى، فإنّ الخوف أطار كراهم من أوكاره، فلمّا آمن اللّه تعالى قلوبهم رفرف بجناحه عليهم فنعسوا[6]، فغير الخطاب مساره فهو ليس موجّهاً إلى هؤلاء وإنّما إلى أولئك المرابطين في الحرب، الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

فجاء بالفعل الأوّل يغشيهم بصيغة المضارع تذكيراً لهم، وهذا تشريح للنفس الإنسانية، لأنّ الخائف إذا خاف من عدوّه الخوف الشديد على نفسه وأهله فإنّه لا يأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمنوا فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد يدلّ على إزالة الخوف وحصول الأمن[7]. ومن خلال تذكيرهم بهذا الأمن، تذكير مبطّن على ذلك الخوف الذي عانوه من قبل.

وبعد تذكيرهم بتلك النعمة أردفها بنعمة أخرى، وهي نزول المطر وكالأخرى عبّر عنها َ يُنَزِّلُ كذلك ليواصل في نفس النسق السردي، والغاية من هذا المطر لِيُطَهِّرَكُمْ ولِيَرْبِطَ وكلّ هذه الأفعال دلّت على الغوث الذي مدّهم به، والذي طلبوه هم في وقت سابق، ففي آية سبقتها يقول تعالى:﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ الأنفال 09، حيث قال تستغيثون وقال في الإجابة اسْتَجَابَ ، هذا لأنّه يركز في هذا السياق على فعل الاستغاثة، وبالتالي ذلك الموقف.

وإن قيل أنّ للفعل الماضي هو الآخر قدرة على تجسيد هذه الأحداث يرى ابن الأثير أنّ الفعل المضارع في هذه الحالة يكون له حضور خاص يسهم في إضفاء بلاغة سردية لا يسع الفعل الماضي تجسيدها فيقول "اعلم أنّ الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضين وذلك كأنّ الفعل المستقبل يوضّح الحال التي يقع فيها، وستحضر تلك الصّورة حتى كأنّ السامع يشاهدها وليس ذلك للفعل الماضي"[8].

وأحياناً رغبة في تجسيد الصورة وتشخيص المشهد، تقفز صيغة يفعل من حيّزها الزمني من أجل ألاّ تفوّت أي زاوية من زوايا السرد القصصي، وبهذه الدّلالة نقف عند أصحاب الكهف وقد أووا غلى كهفهم في نوم عميق، في مشهد قرآني فيه من قوّة الإيحاء والتشخيص ما يجعل القارئ يشاهدهم ويلتقي بهم[9]، يقول عزّ وجلّ: ﴿ **وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا** ﴾ الكهف 17. فالأفعال المضارعة أثقلت من وتيرة السّرد من أجل التشخيص الدّقيق، لكأنّ السامع ينظر إلى هذا المشهد، وأضفى ذلك عليه مسحة استقرار وهدوء تساير هدوئهم في نومهم.

وهذا التجسيد للأحداث يدل على بلاغة السرد القرآني في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا**﴾ الكهف 21، ففي هذا المشهد القصصي حملت الأفعال المضارعة فيه الأحداث فوق الزمن الماضي إلى كلّ لحظة تتلى فيها هذه الآيات وهنا تتجلّى بلاغة السرد القرآني، "إذ نعاين هيمنة الرؤية المحايدة على الحكي في القصص القرآني، وفي هذه التقنية يتمّ تنظيم الحكي من موقع خارجي، بينما تترك شخصيات السرد تتحدّث بأصواتها دون تدخّل، ممّا يعطي انطباع للمتلقّي بصدق ما يتلقّى حين يجد نفسه مشاركاً في الحكي بوصفه مشاهداً حاضراً مستمعاً لما يجري من حوار"[10].

عندما ينقل لنا القرآن الكريم صورة بالأسلوب العدولي من ذلك الماضي سواء كان بعيداً أو قريباً ، من أجل استحضار تلك الصّورة، فلا جرم يسعى إلى تحقيق فكرة ما، إمّا من أجل الإشادة بتلك الصورة أو بغية إصلاح خلل ما

وقع في تلك الحادثة، فلننظر إلى قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ آل عمران 152، حملت هذه الآية حالتين متناقضتين عرضهما القرآن الكريم مبيناً بسبب الاختلاف بين الوضعيتين.

1): حالة النصر التي جاءت في أسلوب مميّز حيث عبّر عن ذلك الموقف بالفعل المضارع، ليصبح بعد ذلك البؤرة الدّلالية في الآية، وخاصّة أنّ الفعل هنا اكتسب شحنته الدّلالية من الصيغة من جهة وحتى من الفعل من الفعل في ذاته، إذ الحسّ هو القتل السّديد ومنه صبّحوهم فحسّوهم أي قتلوهم قتلاً ذريعا[11].

ومنه قول الشاعر:

حَسَسْنَاهُمْ بِالسَّيْفِ حسّاً فَأَصْبَحَتْ ***بَقِيَّتُهُمْ قَدْ شُرِّدُوا وتَبَـدّدُوا[12]

ومنه قول جرير:

تَحُسُّهُمْ السُّيُوفُ كَمَا تَسَامَى*حَرِيفُ النَّارِ فِي الأَجَمِ الحَصِيدِ**[3]

وهذا ليحملهم إلى لحظات النّصر ليؤنّبهم على عدم المواصلة في تقواهم حتى يواصل نصرهم على هذا المنوال.

إنّ الجوّ الذي يضفيه الخطاب القرآني على ظواهر اللّغة هو جوّ مميز، تصبح فيه اللّغة ذاتاً قابلة للتوجيه ولكن وفق تحفظات، لتتماشى وخصوصية ذلك الخطاب، وعليه تبدو عملية سبر أغوار دلالات هذه الظواهر تجربة فريدة من نوعها في قراءة النص، يكون المتلقّي في أثناء هذه القراءة متوقعاً لأي دلالة، ذلك لأنّ الدلالة اللّغوية في الخطاب القرآني هي دلالة مثقلة بالفكر[13]، الذي ينقله إلى القارئ، وتصبح مهمة هذا الأخير فكّ رموزها.

ففي قوله تعالى:﴿ **كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ الشورى 03، فللفعل يُوحِي في هذا السياق حضور متميّز، جعله يستقطب دلالات متعدّدة، تفرضها حيناً القرائن العقلية، وحيناً آخر القرائن اللّغوية.

جاء الفعل ليدل على أن المعاني المتواترة في آي القرآن الكريم هي في الحقيقة محض استمرار للدّعوة إلى اللّه عزّ وجل، ونقص بذلك الرسالات النبوية السابقة للرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم، ولكن ليس استمراراً يذهب بجدّة القرآن وتميّزه، وإنّما استمرار في الفيض الروحي للبشر بدعوات تترى للصّلاح والخير، وعلى هذا الحال يدلّ الفعل بصيغة المضارع أنّ الإيحاء بالمواعظ والعبر هو سنّة اللّه في خلقه على مرّ الأزمنة.

وبعد، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نجزم أنّ الدلالات التي حمّلها هذا البحث للأساليب العدولية سواء في الصيغة أو الزمن هي الدّلالات النهائية، وإنما هي غيض من فيض المعاني التي يحملها القرآن الكريم، فنرجو أن نكون قد وفّينا للموضوع حقه.

الهوامش:

1: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار النهضة، القاهرة، د ت.ص193

2رؤبة، الديوان، تح وليم بن الورد،دار إبن قتيبة،الكويت،دت، ص81

3 تأبّط شرّاً، الديوان،تح عبد الرحمن المصطاوي، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1ط2003 ص74-75

4أبو علي السكاكي، مفتاح العلوم،تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ص 247.

5الكفوي، معجم الكلّيات، تح عدنان درويش،محمد المصري،مؤسسة الرسالة،لبنان،ط2ن1998ص175

6 ينظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت. ج 9، 175.

7ينظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، ومفاتح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1981 ج15، ص136.

8 ابن كثير، المثل السائر، (م.س.ذ)،ج2،ص89

9 ينظر: عبد الكريم بكري، الزمن في القرآن الكريم، دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الكويت، الجزائر، ط1، 2001. ص384.

10محمد مشرف حضر، بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب، جامعة طنطا، مصرص125.

11 الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان (مادة حسس)، ص 126.

12 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2006. ج 5 ص 361.

13لطفي عبد البديع، التركيب اللّغوي للأدب، بحث في فلسفة اللّغة والإستطيقا، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية، 1989، ص67.